

استراتيجية علم الآثار الوقائي بالجزائر (بوادرها التمهيدية دراسة تقييمية) Preventive archeology strategy in Algeria(Its preliminary signs is an evaluation study)

الأستاذة: الفيلالي جازية، أستاذة مساعدة قسم "أ"

—جامعة بشار—

ملخص:

يتناول موضوع الدراسة عرضا تقييميا لجملة المبادرات التي اتخذتها الجزائر في مجال تبني استراتيجية علم الآثار الوقائي، ومحاولة التمكن لها على أراضيها في الفترة الممتدة ما بين سنتي (2003 - 2009)م حيث تنوّعت تلك الأنشطة المختلفة ما بين اللقاءات التحسيسية، وإجراء عمليات التشخيص الميداني وممارسة الحفريات الوقائية، وفتح التكوين الأكاديمي المتخصص على مستوى مؤسسات التعليم العالي والبحث العلمي باعتبار أنّ هذه الاستراتيجية الجديدة قد فرضت نفسها في مجال حماية التراث الأثري وتضمنه على الصعيد الدولي في الآونة الأخيرة، حيث تمكنت من إزاحة ما كان يُعرف سابقا باسم "علم الآثار الإنقاذي"، وحلّ محله في سبيل الانتقال من مبدأ "الإنقاذ" بعد وقوع الضرر على الآثار، كما كان معهود منذ نهاية الحرب العالمية الثانية إلى مبدأ "الوقاية" منها، ومحاولة تسيير مصادر أخطارها تسييرا عقلانيا في الوقت الراهن بوصفها طفرة جديدة في منتهى الأهمية لحماية التراث الأثري غير المصنّف من أخطار زحف المشاريع التنموية المعاصرة على حسابه مع مستهل القرن الحادي والعشرين (21) الجاري.

كلمات مفتاحية: علم الآثار الوقائي؛ التراث الأثري؛ الحفظ والتّثمين؛ التنقيب الأثري؛ التراث الجزائري.

Abstract:

The subject of the study is an Evaluation of the Various Initiatives taken by Algeria in adopting the Strategy of Preventive Archeology and the attempt to enable it on its territory between the years 2003-2009. These activities varied between educational meetings, , And the practice of preventive excavation, and the opening of academic training specialized at the level of institutions of higher education and scientific research as this new strategy has imposed itself in the field of protection of archaeological heritage and its international value in recent times, Formerly known as salvage archeology, and was replaced by the principle of "rescue" after damage to

monuments, as was the case since the end of the Second World War to the principle of "prevention", and the attempt to manage the sources of their dangers rationalization at the present time As an important new breakthrough for the protection of archaeological heritage not classified as the dangers of the march of contemporary development projects at the expense of the beginning of the twenty-first century (21).

Keywords:

preventive archeology; archaeological heritage; conservation and valorization; archaeological excavations; Algerian heritage

مقدمة:

تسعى استراتيجية علم الآثار الوقائي جاهدة إلى التوفيق بين حماية التراث الأثري غير المصنّف، وغير المدروس المهتدّد بخاطر زحف المشاريع التّنموية المعاصرة على حسابه من جهة، ومسألة تجنّب تعطيل مشاريع الاستثمار المعاصر بدعوى وجود عقارات أثرية يمنع انتهاك حرمتها، مهما كان السبب من جهة ثانية. والجزائر كغيرها من عديد دول العالم، حاولت مواكبة الرّكب في هذا المجال، حيث قامت بعدّة مبادرات تمهيدية لإرساء دائم هذه الاستراتيجية الجديدة ضمن مبادئ سياستها الوطنية المنتهجة في مجال حماية التراث الأثري وتنميته. وعليه يمكن إثارة الإشكالية الآتية: فيما تجلّت مظاهر الأنشطة التمهيدية للمبادرة الجزائرية في مجال التعرّف على مقوّمات استراتيجية علم الآثار الوقائي ومحاولة تنبّيها؟ وإلى أيّ مدى كان توفيق تلك المساعي الاستكشافية في تحقيق الغايات المرجوة منها؟.

1). التشخيص التكويني الاستعراضي: شملت هذه العملية موقعان أحدهما يعود للفترة الرومانية القديمة بمدينة شرشال (الصورة: 01)، والآخر موقع جزيرة لالاهم (المخطط: 01)، وذلك في سنة (2003)،
أ). تشخيص موقع "مركدال": اندرج ضمن مشروع تجريبي على الصّعيد المحلي موسوم بـ: "علم الآثار الوقائي والتّراث؛ إنقاذ شرشال"⁽¹⁾ في إطار عمل مشترك بين (ANAPSMH)** آنذاك و"المعهد الوطني الفرنسي لأبحاث علم الآثار الوقائي" (INRAP)، مفاده إجراء تشخيص أثري بموقع "مركدال" الأثري في مدينة شرشال السّاحلية، ومحاولة الاستفادة من التجربة الفرنسية في هذا المجال بوصفها واحدة من التجارب الرائدة في الاتحاد الأوروبي آنذاك.

1-La loi n° 2001/44 du 17 janvier 2001 relatif à l'archéologie préventive modifiée par la loi n° 2003 - 707 du 1 Août 2003.

* يُنسب موقع "مركدال" الأثري إلى تسمية "فلة" مجاورة له بأقصى جنوب غرب مدينة شرشال، أكثر تفاصيل حول تاريخها العريق، وتطوّر عمرانها عبر العصور، يُنظر على سبيل المثال: LEVEAU (PH), Caesarea de Mauritanie, une ville romaine et ses compagnes, Collection de l'Ecole de Rome, Rome, 1984.
** أنشئت "الوكالة الوطنية للآثار وحماية المعالم والتّصّب التاريخية" بموجب المرسوم رقم 87 - 10، تحولت تسميتها من "الوكالة" إلى "الديوان الوطني لتسيير الممتلكات الثقافية المحمية واستغلالها" بداية من سنة 2005، أكثر تفاصيل، يُنظر الجريدة الرّسمية للجمهورية الجزائرية الدّيمقراطية الشّعبية، مجلّد عام (1987)، ومجلّد عام 2005.

وقد جاء هذا التشخيص كمدخل مسبق لوقاية آثار الموقع قبل مباشرة المشروع التنموي على سطحه من جهة، وكذا التعرف على أدوات وتقنيات العمل الجديدة المعتمدة في مجال "علم الآثار الوقائي" بالجزائر لأول مرة من جهة ثانية⁽¹⁾. حيث أسفرت نتائج التشخيص على اكتشافات أثرية معتبرة، حفّزت القائمين على العملية إرسال فريق متكامل من الباحثين الجزائريين والفرنسيين إلى مدينة "نيم" (NIMES) بجنوب فرنسا في غضون شهر ديسمبر من تلك السنة (2003) لفحص، ودراسة تلك المكتشفات الأثرية، وإجراء عمليات التحاليل المخبرية اللازمة عليها بمقر القاعدة الجهوية "للمعهد الوطني الفرنسي لأبحاث علم الآثار الوقائي"، تلاها تحرير تقرير علمي، ضمّ توثيقا مستفيضا لجميع مراحل العمل الميداني السابق، وأهم نتائج العلمية⁽²⁾.

ب). **تشخيص جزيرة "اللاهّم"**: أقدمت بلدية "وادي فُريش" في منتصف عقد تسعينيات القرن الماضي على تهيئة موضع لاحتضان مشروع مركز تجاري ضخم يتكوّن من خمس طوابق، حيث يتّرع على مساحة إجمالية مقدارها (4775) متر مربع، ضمتّ "جزيرة لالاهّم"، و"ساحة الإيالة" (PLACE DE REGENCE) بالقسم السفلي من قصبة مدينة الجزائر (المخطط: 01)، حيث جرت الأشغال على نسق التشخيص السابق وبتنفيذ من نفس الأطراف، ونفس الطّاقم البشري تقريبا⁽¹⁾.

2. استضافة اللقاءات والمؤتمرات الخاصة:

أ). **أشغال الورشة "الأورو - مغربية" (2004)**: جرت أشغال هذه الورشة الدولية الرفيعة المستوى بمدينة الجزائر العاصمة أيام 27-28-29 نوفمبر (2004) بمشاركة كلّ من: ممثل "اليونسكو"، و"المعهد الوطني الفرنسي لأبحاث علم الآثار الوقائي" الفرنسي، وجامعة "بول فاليري الثالثة" (UNIVERSITE PAUL)

1-Agence national d'archéologie et de protection des sites et monuments historique, SAUVER CHERCHELL (recherche archéologiques préventive), N° 94 / S.DG / 2003; Document final de synthèse (Diagnostic archéologique du terrain MARCADAL -Cherchell- Algérie), Mars, 2004, ANAPSMH (Algérie) et INRAP (France), p 3.

2-SOUQ (F), "l'opération de diagnostic archéologique du terrain Marcadal à Cherchell (Algérie)", Atelier Euro-maghrébin, p 69.

1-ABBACI (A) & SOUQ (F), Document final de synthèse; Archéologie préventive et patrimoine «Sauver Cherchell», Diagnostic du terrain Marcadal Cherchell (Algérie), ANAPSMH, Alger / INRAP, Nîmes, 2004.

(VALERY III) بمدينة "مون بوليه" الفرنسية، وباحثين من إسبانيا، وإيطاليا، وتونس، والمغرب الأقصى، وموريتانيا، و"المركز الوطني للبحوث الأثرية (CNRA) بالجزائر، حيث كان موضوعها الرئيسي متمحورا حول: "التراث، والتنمية الإقليمية، وعلم الآثار الوقائي"⁽¹⁾.

وقد دارت أشغال الندوة في شكل موائد مستديرة موزعة على ثلاث ورشات ثانوية، كان الهدف منها بالنسبة للطرف الجزائري على ما يبدو، هو تأكيد رغبته الصريحة في مساهمة مستجدات التراث الثقافي بشكل عام، والتراث الأثري منه بشكل خاص على الصعيد الأممي، والإقليمي، وكذا حرصه الشديد على صقل خبرته الوطنية بإضافة إليها خبرات أجنبية جديدة في مجال تسيير التراث الأثري ووقايته، كما هو الحال عليه مع تطبيق مبادئ استراتيجية "علم الآثار الوقائي" في الأراضي التي لم يسبق وأن شُخصت فيها الآثار من قبل قط.

علما أنّ هذه الورشة قد توجت بجملة من التوصيات العملية، ترمي في مجملها إلى ضبط سبل التمكن لاستراتيجية علم الآثار الوقائي، وترسيخ دعائمها بالجزائر بشكل خاص، وبقية الدول المغاربية، المشاركة في أشغال الندوة بشكل عام.

(ب). لقاء جامعة تلمسان الدولي: بعد تلك الندوة بأيام قلائل، احتضنت "جامعة أبي بكر بلقايد" في مدينة تلمسان بدورها لقاءً علمياً شهر ديسمبر من تلك السنة (2004)، ضمّ إدارات من "المعهد الوطني الفرنسي لأبحاث علم الآثار الوقائي"، وأساتذة باحثين من جامعة "بول فاليري الثالثة"، وممثلين عن السفارة الفرنسية بالجزائر والأسرة الجامعية بتلمسان (طلبة، وأساتذة، ومسؤولين إداريين)، أسفرت أشغاله في نهاية المطاف على توقيع اتفاق بين جامعة تلمسان و"المعهد الوطني الفرنسي لأبحاث علم الآثار الوقائي"، ينصّ على التعاون بين الطرفين في مجال تكوين أساتذة، وطلبة قسم علم الآثار ما بين سنتي (2007 – 2010)م⁽²⁾.

3). تكوين وإعادة تأهيل الإطارات الجزائرية في مجال استراتيجية "علم الآثار الوقائي":

أسندت مهمة تكوين مجموعة من الإطارات، والطلبة الجزائريين حول مبادئ استراتيجية "علم الآثار تجارهم

1-SOUQ (F), "Rapport d'expertise du projet d'évaluation archéologique : Ilot Lallahoum (Icosium)", **Atelier Euro-maghrébin**, Op.cit, pp 81 – 8

2-SOUQ (F), "Rapport d'expertise du projet d'évaluation archéologique : Ilot Lallahoum (Icosium)", **Atelier Euro-maghrébin**, Op.cit, pp 81 – 85

الخاصة بتربصات مكثفة قصيرة المدى بداخل الوطن بالنسبة لطلبة الجامعة الجزائرية، وفي فرنسا فيما يخص إطارات قطاع التراث الأثري، وأساتذة الجامعات الجزائرية إلى "المعهد الوطني لأبحاث علم الآثار الوقائي" في فرنسا بموجب إبرام اتفاقاً تعاون في مجال التكوين، والتأهيل البشري بينه، وبين كلٍّ من "الوكالة الوطنية للآثار وحماية المواقع والمعالم التاريخية" عام (2006)، وجامعة أبي بكر بلقايد عام (2007)م، كما سلفت الإشارة من قبل على أفراد، تلخصت مجمل تلك النشاطات فيما يلي:

(أ). تربص إطارات وزارة الثقافة بفرنسا: نُظِم هذا التربص الميداني على شرف إطارات "الوكالة الوطنية للآثار وحماية المواقع والمعالم التاريخية" آنذاك، ونظرائهم في الإدارة المركزية بوزارة الثقافة الجزائرية عام (2007)م بجنوب فرنسا، حيث تلقوا تكويناً نظرياً، وتدريباً ميدانياً لمدة شهر كامل على مستوى "قاعدة ما بين الجهات" (BASE INTERREGIONALE) بمدينة "نيم"⁽¹⁾.

(ب). تربص أساتذة جامعة تلمسان بفرنسا: وفي ذات السياق، وبذات المكان، تلقى أستاذان جامعيان من قسم علم الآثار بجامعة تلمسان تكويناً مماثلاً في دورة تدريبية خاصة، امتدت ما بين 27 مارس و25 أبريل (2007)⁽²⁾.

(ج). استضافة إطارات (INRAP) لتأطير طلبة علم الآثار بتلمسان: تنفيذاً لبنود الاتفاقية الثنائية المذكورة أعلاه، دعت جامعة أبي بكر بلقايد ثلاثة إطارات من "المعهد الوطني لأبحاث علم الآثار الوقائي" بغرض إجراء تكوين ميداني لطلبة قسم علم الآثار في الفترة الزمنية الممتدة ما بين 15 - 29 مارس من تلك السنة (2007) (الصورة: 02).

(د). دمج "علم الآثار الوقائي" كتخصص علمي بالجامعة الجزائرية: كنتيجة لتلك اللقاءات، و التربصات

1-Institut National des Recherches d'Archéologie Préventive (France) et Université Abou Bekr Belkaïd (Tlemcen), **Accord- Cadre de Coopération en matière de formation et de recherche scientifique en Archéologie Préventive**, 2007

2-مقابلة خاصة مع السيد: "إلياس عريفي"، أحد الإطارات الجزائرية، المستفيدة من هذا التربص، وذلك بمقر "المركز الوطني للبحوث الأثرية" في مدينة الجزائر العاصمة، بتاريخ 05 فيفري 2011.

بداخل الوطن وخارجه، تمّ اعتماد "علم الآثار الوقائي" كتخصص فرعي تطبيقي ضمن التخصصات الفرعية لشعبة علم الآثار بكلّ من قسم علم الآثار في جامعة تلمسان، ومعهد الآثار بجامعة الجزائر 2 إلى غاية إعادة مواءمة التخصصات في الآونة الأخيرة من طرف وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، حيث تمّ الإبقاء على أربع تخصصات رئيسية، هي: آثار ما قبل التاريخ، والآثار القديمة، والآثار الإسلامية، والصيانة والتّرميم، وإلغاء ما دون ذلك بما فيها تخصص "علم الآثار الوقائي" طبعا.

4. التشخيص الوقائي الاحترافي:

تمّ في هذا النّسق العام إجراء تشخيصين رئيسيين، أولهما على مستوى المحطّة المركزية لمترو مدينة الجزائر بساحة الشّهداء في سنة (2007)، والثاني نهاية عام (2009)، ومستهلّ (2010) بقلعة المشور في إطار تهيئة المعالم التاريخية بعاصمة الدّولة الرّيانية لاحتفالية "تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية (2011)".

أ). تشخيص ساحة الشّهداء بمدينة الجزائر العاصمة: أُجريّ هذا التشخيص من طرف فريق عمل مشترك جمع ما بين إطارات جزائرية تلقت تدريباً مسبقاً بهذا الخصوص في فرنسا على التّحو المفصّل أعلاه، وبعض مؤطريهم من "المعهد الوطني لأبحاث علم الآثار الوقائي"، حيث أسفر على اكتشافات أثرية في منتهى الأهمية، حتّمت على الهيئة الوصية (وزارة الثقافة) إمضاء اتفاقية جديدة مع الطّرف الفرنسي المذكور للقيام بحفريات وقائية هناك على التّحو المفصل في موضعه أدناه.

ب). تشخيص قلعة المشور بمدينة تلمسان: أُجريّ هذا التشخيص على يدي إطارات جزائرية بإشراف مفتش مركزي بوزارة الثقافة، الدكتور لخضر درياس (رحمه الله)، حيث انطلقت هذه العملية في نهاية عام (2009)م، كما سلفت الإشارة من قبل، واستمرّت إلى غاية شهر فيفري من العام الموالي (2010)، وذلك على أرضية الفناء المركزي للمستشفى العسكري المتسع لثلاثمائة واثنا عشر (312) سريراً، كان بناؤه على يدي مصالح الهندسة العسكرية الفرنسية في عقد أربعينات القرن التاسعة عشر هناك، قبل أن يتحول في وقت لاحق إلى ثكنة عسكرية

إلى غاية عام (1990)م، حيث تم اكتشاف أحواض مائية محلاة الباطن بالبلاطات الخزفية الملونة، تم فيما بعد تشييد على ضفافها هياكل ما يُعرف باسم "القصر الملكي" الآن⁽¹⁾.

5). الحفيرة الوقائية بساحة الشهداء:

أُجريت هذه الحفيرة -الأولى من نوعها بالجزائر- في الفترة الزمنية الممتدة ما بين 4 يوليو و6 أغسطس (2009) على مستوى موضع محطة انطلاق "ميتر الجزائر"، كما سلفت الإشارة من قبل. وذلك من قبل فريق عمل مشترك، ضمّ في ثناياه اثنا عشر (12) باحثا جزائريا، ينتسب إمّا إلى "المركز الوطني للبحث في علم الآثار"، أو "الديوان الوطني لتسيير الممتلكات الثقافية المحمية واستغلالها" (OGEBEC)، الذي حلّ محلّ الوكالة الوطنية الأنفة الذكر، أو "مديرية الثقافة" بولاية الجزائر العاصمة إلى جانب خمسة (05) مؤطّرين لهم قدموا من "المعهد الفرنسي لأبحاث علم الآثار الوقائي" في إطار اتفاقية الشراكة المبرمة في وقت سابق من تلك السنة بين المعهد المذكور من جهة، ووزارة الثقافة الجزائرية من جهة ثانية، وبرعاية منظمة "اليونسكو" باعتبار أنّ موقع قصبة مدينة الجزائر بمجمله، مقيّد في قائمة التراث العالمي منذ عام (1992)م؛ فيما تحمّلت "شركة ميتر الجزائر" (EMA) بالاتفاق مع وصايتها، "وزارة النقل" الجزائرية تكاليف الحفيرة الأثرية ودراسة الأثاث الأثري المكتشف، وكذا إعادة تأهيل الموقع في شكل متحف مفتوح على الهواء الطلق أمام مرطادي "ميتر الجزائر" من تلك المحطة⁽²⁾.

1-l'INRAP, Rapport Final Sur Un Stage de Formation en Archéologie Préventive A Montpellier, France, présenté par : Belhadj MAAROUF (MC) et Rezki CHERGUI (CC), Année Universitaire 2006 / 2007.

2-الفيلاي جازية، علم الآثار الوقائي في الجزائر (دراسة تحليلية لبوادرها التمهيدية)، مذكرة تخرّج لنيل شهادة الماجستير في تخصّص علم الآثار الوقائي، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2010-2012، ص54.

خاتمة:

انطلاقاً من العرض الوجيز السابق يتضح أمران أساسيان، أولهما اقتصر الجزائر في مجال تبادل الخبرات مع العالم الخارجي على التجربة الفرنسية دون سواها، وثانيهما أنّ التجربة الفرنسية، هي تجربة محلية يافعة لها ما لها، وعليها ما عليها، وليس بوسعها إعطاء صورة واضحة المعالم حول استراتيجية علم الآثار الوقائي في العالم على اعتبار أنّ هذه الاستراتيجية من ابتكار ياباني خالص في عقد خمسينيات القرن الماضي؛ ناهيك عن وجود تجارب ناجحة جديرة بالدراسة والاحتذاء بما في الفضاء الأوروبي من غير التجربة الفرنسية، المترنحة حتى الآن في مشاكل داخلية عويصة، ليس ها هنا مجال للوقوف عندها بتفاصيل أكثر.

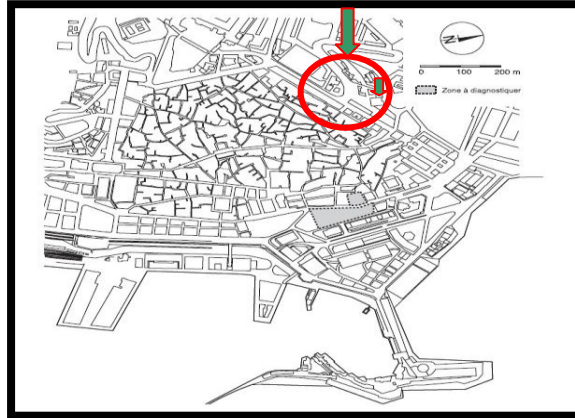
وثانيهما أنّ تمسك الجزائر بمواكبة الركب في هذا المقام فكرة صائبة للغاية، إلّا أنّها تبقى منقوصة الفعالية، ولعلّ سبب ذلك هو فشل التجربة الفرنسية في تقمص صورة النموذج الناجح الجدير بالاعتداء في هذا التسق العام. لكن المتأمل لخصوصيات التراث الأثري الجزائري، والهيكل التنظيمية، والبنية التشريعية الوطنية وفي مقدمتها "المخطط التوجيهي الوطني للتهيئة الإقليمية" (SNAT) لأفق سنة (2025)م، كلّها عوامل مساعدة على اعتماد هذه الاستراتيجية بنجاح مستقبلاً، كما سنحاول إبراز معالمها العامة في دراسة أكاديمية أطول، وأعمق في المستقبل القريب.



الصورة (01): منظر عام لموضع إجراء أول تشخيص وقائي على أرض الوطن بالقرب من "فلة المركدال" بمدينة شرشال، سنة (2003)؛ تصوير الدارسة.



الصورة (02): تأطير إطارات (INRAP) طلبة علم الآثار بتلمسان.



المخطط (1): موضع تشخيص جزيرة "اللاههم" وساحة الإيالة بقصبة مدينة الجزائر، نقلا عن: "فرنسوان سوك" (FRANÇOIS SOUQ).

قائمة الببليوغرافيا:

1-المراجع:

أ-بالغة العربية:

-الفيلاي جازية، علم الآثار الوقائي في الجزائر (دراسة تحليلية لبوادرها التمهيدية)، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في تخصص علم الآثار الوقائي، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2010-2012.

-مقابلة خاصة مع السيد: "إلياس عريفي"، أحد الإطارات الجزائرية، المستفيدة من هذا التّربص، وذلك بمقرّ "المركز الوطني للبحوث الأثرية" في مدينة الجزائر العاصمة، بتاريخ 05 فيفري 2011.
ب-باللغة الفرنسية:

-La loi n° 2001/44 du 17 janvier 2001 relatif à l'archéologie préventive modifiée par la loi n° 2003 - 707 du 1 Août 2003.

-LEVEAU (PH), Caesarea de Mauritanie, une ville romaine et ses compagnes, Collection de l'Ecole de Rome, Rome, 1984.

-Agence national d'archéologie et de protection des sites et monuments historique, SAUVER CHERCHELL (recherche archéologiques préventive), N° 94 / S.DG / 2003; Document final de synthèse (Diagnostic archéologique du terrain MARCADAL -Cherchell-Algérie), Mars, 2004, ANAPSMH (Algérie) et INRAP (France).

-SOUQ (F), "l'opération de diagnostic archéologique du terrain Marcadal à Cherchell (Algérie)", Atelier Euro-maghrébin.

-ABBACI (A) & SOUQ (F), Document final de synthèse; Archéologie préventive et patrimoine «Sauver Cherchell», Diagnostic du terrain Marcadal Cherchell (Algérie), ANAPSMH, Alger / INRAP, Nîmes, 2004.

-Institut National des Recherches d'Archéologie Préventive (France) et Université Abou Bekr Belkaïd (Tlemcen), Accord- Cadre de Coopération en matière de formation et de recherche scientifique en Archéologie Préventive, 2007

-l'INRAP, Rapport Final Sur Un Stage de Formation en Archéologie Préventive A Montpellier, France, présenté par : Belhadj MAAROUF (MC) et Rezki CHERGUI (CC), Année Universitaire 2006 / 2007.

